

مرايا المقهى

ياسين النصير

ynazal@wanadoo.nl

الحوار المتمدن - العدد: 1630 - 2 / 8 / 2006

نحن نسعى لوجود نوع من النصوص تعكس طريقة وجودنا فيها ،
همنا الأساس هو أن لانقول ما لم يحدث ،
بل ان نراقب ما يحدث، وان نثمن ما يحدث، وان ننتقد ما يحدث،
وان نرفض أو نقبل ما يحدث. نحن في مرحلة عراقية
ليس فيها مستقر ثابت أو متحرك بلا ثوابت،
أنا في دوامة من حركة السلب والجذب التي تمنحها لنا إرادات الناس
وهم في حركتهم اليومية.

1

ثمة رغبة حقيقة لدي الكثير من المثقفين العراقيين لأن يقال لهم أنهم موجودون في الشارع العراقي،
أيما كان هذا الشارع وفي اي زمان يكون، وهي رغبة ترتبط بهاجس الوطنية كي لا يقال أن فلانا قد
نسي المنزل الأول على حد قول ابي تمام. وترتبطت الرغبة اكثر بفقدان الذات لجزء مهم منها وهو أنا
الآخر الذي يشكل نصفها المختفي فيها ، وكأن هذا الآخر في الوطن هم ممن يتكلمون لغته ويشتركون
معه في همومه وأفكاره، ثم فجأة تغير هذا الآخر بعد الهجرة ليصبح كأننا جديدا مختلف الثقافة والفكر.
وعلى العراقي أن يكيف نفسه كي يجعل من الآخر الغربي قريبا منه، أو يكمل ما فقده من غياب الآخر
الوطني. وهذه النقطة بين الأثنين هي ما تشكل غياب الأنا الجديدة وضياعها بين أن تتمسك بما كانت
عليه فتعيش على الذكريات، أو ان تفتح على الجديد فتتطور. أن تشكيل مرايا الذات يتطلب تشكيل مرايا
للآخر هنا تبدأ مشكلة البحث عن الهوية فهل فقدت الهوية السابقة التي تحملها على ظهرها في
مرآة أوربا؟ أم أنك ستجملها وتحشوها بما هو اوروبي لا يطغى على محلي قابل للتغير؟ المشكلة تبدأ
عندما نفكر في هل نحن حدائيبين أم لا؟ وعندئذ نبدأ بالبحث عن افق يصور لنا القدرة الذاتية على
الاندماج والاستمرار. والافق الذي اعنيه هنا هو وجود مرايا قائمة امامنا باستمرار كي لا نجعل انفسنا
غانبين عن انفسنا. إن مشكلة الإنسان غير المندمج هو شعوره بان هويته هي شخصيته الجديدة
والقديمة، معا وأن هذه الهوية مشكلة بعوامل غير قابلة للتغيير وهو ما يؤدي إلى العنف أحيانا عندما
يصطدم بهويات لآخرين من التصور نفسه، في حين أن قدرته على تحريك المرايا في كل الاتجاهات
وحدها التي تجعله في بؤرة الحدث دون أن يفقد هويته.
فالشارع العراقي على المستوى الرمزي والعاطفي هو تعويذة تصاحب أي عراقي مهما تنقل أو استقر.
شارع لا ندير له ظهرنا لنستعير مفرداته من مرايا تقبع في جوف مقهى آخر. بل هو خارج المرايا كلها،
كائن في ذلك الهاجس المتحرك بين الأسواق والدوائر والساحات والمدن والتواريخ والجبهات يقع في
البيت و المدرسة والجامع، يصحبنا للدرس وللعمل وللنزهة وللحرب، يعوم في النهرين، منشدا
المقامات العراقية ويتسلق الجبال ويسافر على جمل صحرائنا الصبور. فالبحر في محيط استراليا المائي
كان شارعا عراقيا للمهاجرين الذين غرقوا فيه هؤلاء الذين تركوا مرايا الشارع العراقي خلفهم وجاءوا
لينشغلوا بالتحرق من القيد، مثله مثل لندن أو امستردام أو باريس التي تغرق مهاجريننا يوميا بالعماد
الثانوي . فالشارع العراقي هو من يحقق وجودنا في ابط فعل ممارسه. شخصيا أنتمي لشوارع الكرادة
والسعدون والثورة والبياع وكورنيش البصرة ولتقى تانهرين في القرنة وازقتها لأن الناس هي التي
أسستها، ولا انتمي لشوارع المنصور وكرادة مريم و14 رمضان لأن السلطة هي التي أسستها، وقد
يكون ذلك من قبيل التأكيد على البعد النفسي/ الثقافي عندما تتحول الشوارع إلى بؤر استقطاب مختلفة

للقوى الإنسانية. فتصبح مقبولة حينما تشعر أن الناس قد بنتها وصيرتها علامة في حياتهم ومرفوضة عندما ترتبط بمؤسسات الدولة ورجالاتها. من يقبل منها يتحول الإنسان فيها إلى مرآة بذاته، ومن يرفض منها تتحول هي إلى مرآة في جوف مقهى ليس فيها رواد. اليوم 22-10-2005 شاهدت معرضاً للفنان التشكيلي فاضل نعمة في متحف مدينة رايلافيك الهولندية، وهو من جيل الشباب الذين تدرّبوا في العراق ومدارسه وغادر مع حوافل المثقفين للخارج ليستقر في هولندا، المعرض أكثر من جديد وجميل وفيه وجدت إنساننا العراقي وهو مكبل بيوميات الشارع الهولندي: إعلانات ورسائل يومية وأوراق البلدية وقوائم الكهرباء والماء والضريبة ورسائل الصحف وإعلانات الاسواق والبضائع وأمكنة السياحة والمتاحف والحدائق والقطارات، إنسان مضغوط تحت هالة كبيرة من الحياة اليومية للشارع الهولندي وقد توزعت هذه الورقيات على مساحات سوداء وبنية وخضراء ورمادية وزرقاء مع تعاويد عراقية لمزارات قديمة – الفنان من مواليد كربلاء- يرددها إنسانه المجرى الملامح لعلها تنجيه من مخاطر الهالة الغربية، وثمة ضغوط هائلة تمارس على الجسد الإنساني بحيث بدا لنا أنه محاصر بين أطر قلما يفلت من أسرها فضاعت ملامحه وتفصيل وجهه وجسده ولم يظهر منه إلا تلك الورقيات. هذا هو حال العراقي في الشارع الغربي، وجوده محكوم بمفردات أخرى غير تلك المفردات التي رايناها في لوحات شاكر حسن آل سعيد ومحمد مهر الدين وغيرهم يذكرني معرض فاضل نعمة بالكثير من تفاصيل الفن العراقي بعد الثمانينات يوم عمت الورقيات والأرقام والحروف والخطوط الحادة النازلة من فضاء مبهم على سطح اللوحة وهي تحيل الكائن العراقي إلى رقم في سلسلة من المباحث اليومية لسلطات البعث عن وجوده. هذا التجاور بين الشارعين العراقي والهولندي في معرض الفنان فاضل نعمة يتحول هنا إلى معادلات رياضية تتداخل فيها كل مفردات الحداثة الأوروبية، نحن في مرحلة التخلص من قيود زمن مضى ولكن العيش دون رقابة صارمة في شارع آخر كله حداثة قد يولد لنا صدمة هذا ما خلصت إليه من معرض الفنان فاضل نعمة.

2

هذا على المستوى النفسي للمعينة الرمزية للعلاقة بين الإنسان ومكانه، وهو مستوى غير دقيق للحديث النقدي المتماسك خاصة بعد أن أصبح المكان مأوى يختصر تاريخاً طويلاً من العلاقة بين الإنسان والطبيعة. وفي هذا المعنى المباشر ثمة مزالق توهمنا أننا نكتب أدباً عراقياً ونحن بعيدون عن العراق، ولكن في حالة المزوجة كما فعل فاضل نعمة نصل إلى حقيقة أخرى وهي أننا نستطيع أن نتخلص من مكبلات الشارع العراقي دون أن ننغمركم كلياً في حداثة الشارع الأوربي. فأنت لا تستطيع أن ترفض الشارع العراقي لمجرد أنك تعيش في شارع أوربي آخر هنا لا مرآة في جوف المكان المرآة هي أنت وأنت فقط الذي يقرر مدى الكيفية التي يرفض بها أو ينسجم. وفي الوقت نفسه لا يمكنك أن تنتمي كلياً للشارع الأوربي دون أن يكون الشارع العراقي موجوداً فيك، فما زال جزء من المرآة يرحل معنا، ثمة معادلة نستعيرها دائماً من الأدب المغترب الأوربي ونقول أن الأدباء الأوربيين الذين هاجروا من ألمانيا الفاشية أو روسيا وجدوا مجالاً لأن يبدعوا في بلدان أخرى، والسبب هو أن ثقافة البلدان المهاجر إليها لا تختلف كثيراً عن ثقافة البلدان التي هاجروا منها، لذا فالهجرة تجديد، في حين أن حقيقة ما جرى لنا غير ذلك فنحن هاجرنا من ثقافة متخلفة قياساً للثقافة الأوروبية. ليس ثمة فواصل ثقافية أو حداثة كبيرة بين ألمانيا والنمسا وأمريكا أو روسيا أو الجيك، في حين ثمة فواصل كبيرة بين العراق ودول الغرب. فالهجرة دائماً ليست مكانية بل ثقافية وهذا ما جعل برشت مثلاً يكتب أفضل مسرحياته وهو مهاجر في حين أن هجرة المثقفين العراقيين هي هجرة مفارقة بين ثقافة مشدودة إلى تراث ديني وقومي تتحكم به حتى لو كان متمرداً عليها، وثقافة غربية منطلقة ومتحررة من التراث الديني والقومي، المفاجأة المرتقبة لنا تظهر عندما نعرف كيف استوعب هذا الشارع الحداثة الغربية ولم يستوعب شارعنا العراقي ما حدث في العراق. لذا فمن الصعوبة أن ينتقل الفنان نقلة نوعية دون أن يمر بمرحلة المزوجة التقنية والفكرية بين الشارعين، الشرط هو الأبداع مقياساً لوجود الفنان في الشارع الغربي/العراقي أينما كان شريطة أن يكون خارج المرآة.

لمعنى الوجود في المكان العراقي هنا أو في الداخل ابعاد أعمق بكثير من الوجود الجسدي. وهذا ما يمكن أن يفرق بين مثقف منغمر كلياً بحركة الشارع العراقي وبين مثقف يرقب حركة الشارع العراقي من نافذة زمنية كان قد مر بها قبل ثلاثين عاماً وها هو يستعيد ما من نافذته الأوربية التي يغبشها الضباب، فلا يجد ملامح بغدادية أو بصرية بل ربما ملامح حضرموتية قديمة.. أن حركة المرور مثلاً وهي شكل من أشكال الحداثة لأي إنسان يعي دور الشارع في حياة المدينة الحديثة تلقن من يعيشها الحذر والخوف والترقب والتي بإمكانها أن تمنحه الحرية أو عدها فإذا تجول هذا الإنسان في بغداد ولقي صعوبة في المرور بين السيارات وتقاطع الطرق في ساحة التحرير والباب الشرقي مثلاً، عندئذ سيجد نفسه في حرية تامة للحركة في مدينة مثل البصرة أو السماوة أو أربيل حيث تقل زحمة المرور " هذا ما يشير لها لكوربوزيه وهو يعبر شارع الشانزليزيه ذات ليلة صيفية هندية في باريس 1924 ليكتب بعدها بيان الحداثة". معلناً أن حركة السيارات الصاخبة مشكلة تعارض حرية القدمين.

لوكوربوزيه يشير هنا إلى قصيدة لبودلير قبل نصف قرن تتحدث عن هالة الشوارع. نحن المهاجرين نبنى تصورنا عن حركة الشارع في أمكنة مختلفة، هناك حيث الفوضى، وهنا حيث التنظيم، ونجاورهما معاً في كتابة قصيدة وهذا ما لم يتح لمثقف يعيش منذ ثلاثين سنة في شارع غربي له قوانينه الأخرى لأن يفهم أن استعارة الحركة خلال مرآة نافذته العراقية القديمة حماسة قد لا تؤدي دائماً لكتابة قصيدة عن العراق، في حين أن القصيدة عن العراق منبثقة من حركة الوجود نفسه في المكان العراقي. وهذا ما يجعل شاعراً يكتب عن أمريكا مثلاً بوصفها دولة محتلة للعراق فيشتتمها ويذمها ويلعن كل تاريخها، لأنها قيدت الشارع العراقي لعرباتها المدرعة وشاعراً آخر يكتب عن العراق بوصفه بلداً ناهضاً من جديد بالرغم من وجود البسطال الأمريكي على أرضه. في حين أن كليهما: أمريكا والعراق في حركة تجاذب متناقضة ومبهمة في الشارع العراقي. فقد يعود الجندي الأمريكي من العراق بعد عام ليكتب رواية انطباعات - علماً أن المثقف العراقي المغترب عن حركة الشارع العراقي لن يكتب حتى الانطباعات، الكاميرا وحدها تصور ما يجري وهذا سر نشاط السينما الوثائقية العراقية قبل وبعد سقوط النظام- فالجندي الأمريكي يهمله أكتشاف نفسه في المكان العراقي ليعيد بالكتابة تصوره عن المكان الأمريكي، هنا تبدأ المفارقة بين إنسان يشترك وآخر يراقب، نحن في الخارج مراقبون ما زلنا نعيش في مراهنا مقاهينا القديمة. ثمة رغبة حقيقية لدى الإنسان العراقي المثقف لأن يقال إنه يشارك جموع ملايين الناس وهم يتحركون في وجودهم اليومي، أه كم هي عظمة حركة الناس في الصباح وأنت تشاهدهم يتحركون في كل اتجاه دون أن تعرف وجهتهم غير أنهم موجودون في الشارع العراقي، وثمة رغبة لدى البعض في أن يقيموا مثل هذه الحركة مادامت قوات الاحتلال موجودة. لا أعني الإرهابيين والمفخخين فقط، بل جموع أخرى جالسة ترى حركة الشارع العراقي في مراهنا المقهى القديم. لا تنفعنا المواقف الثقافية المستعارة من الآخر في مثل هذه المقارنات، قد يكون هارولد بنتر الحائز على جائزة نوبل لهذا العام مهماً وكبيراً وهو كذلك، لأنه يكتب وفق قناعاته التي وفرها له الشارع الإنجليزي عن الحرب ودور بريطانيا، لكنه لم ير ما يحدث في الشارع العراقي إلا ما تعكسه مراهنا الواقع الإنجليزي عنا، قد نفكر معه حيث يفكر وفق ما تمليه عليه مواقفه وبقي علينا نحن أن لا نستعير مواقف غيرنا لنسند بها أخطاءنا عن الشارع العراقي. كل من يكتب عن العراق من نافذته الغربية ويشتم أمريكا أدنى وجوداً في العراق من شاعر يكتب عن أمريكا بالقسوة نفسها وهو موثق إلى الشارع العراقي. استميتح عذراً أن المحت للبعض من أدباننا العراقيين في الخارج، ولكني أجد أن كبرياء المثقف العراقي لا تلتصق بلجد اي هارب من الشارع العراقي. نحن نسعى لوجود نوع من النصوص تعكس طريقة وجودنا فيها، همنا الأساس هو أن لانقول ما لم يحدث، بل ان نراقب ما يحدث، وان نثمن ما يحدث، وان ننتقد ما يحدث، وان نرفض أو نقبل ما يحدث. نحن في مرحلة عراقية ليس فيها مستقر ثابت أو متحرك بلا ثوابت، أننا في دوامة من حركة السلب والجذب التي تمنحها لنا إرادات الناس وهم في حركتهم اليومية. أنني استعيد الآن المشهد المأساوي الذي مر على بغداد في 9 نيسان 2003 وهي تسقط دون مقاومة فأجد الشارع فارغاً من معناه عندما كان ممهداً ومنذ فترة طويلة من قبل النظام الفاشي لأن يكون ممراً

لدبابات المحتل واقدام اللصوص والسراق والمهربين والارهابيين. نحن هنا نشاهد كل المشهد المركب الذي يمر أمامنا عبر الشاشات على مسرح الشارع الذي تعرضه كاميرات الفضائيات العربية المتحجرة وصورلدبابات تتحرك في بطء فوق جسور الروح العراقي، وثمة حركة للكتل المكانية وهي تستعيد وجودها بعد أن غيبتها الحاكمون وكأنها تحارب عوضا عن جيش انهزم ، لأول مرة نرى اننا في مدينة عارية تخلو من العراق، مدينة تصلح أن تكون ساحة للعبة كارتونية لأطفال القرن القادم، اشباح وحكام منهزمون ودبابات أمريكية وشارع فارغ ومعارضة منعت من المشاركة. عندما انعدم الفعل الذاتي للمعارضة فقد الشارع معناه واصبح الناس في فراغ بوجود قوى أخرى مبهمة تهيمن على الشارع. هنا يبدو أن ثقافة المعارضة خاصة تلك التي ادعت بوجود جيوش لها على الحدود مع إيران وفي الداخل فارغة تماما من محتوى القدرة على بث اي نوع من الفعل المشارك حتى لو كان على المستوى الذاتي واستعارت لنفسها ثقافة الفوضى التي انتقلت لاحقا إلى سلطة الفوضى، وبدا لنا ذلك الانتصار واهيا عندما تأكد لاحقا في المحاصصة السياسية التي تعمقت اكثر في تبادل مراتب النهب وتوزيع أدوار السرقة والفساد.